

محاضرة: تاريخ وأصول العلاج الأسري النسقي

Systemic Family Therapy: History and Foundations

مقدمة

يُعدّ العلاج الأسري النسقي أحد أهم التحولات الكبرى في تاريخ العلاج النفسي المعاصر، إذ مثّل قطيعة معرفية ومنهجية مع المقاربات الفردية التقليدية التي كانت تفسّر الاضطرابات النفسية انطلاقاً من الفرد بمعزل عن محيطه. فقد جاء هذا التوجه ليؤكد أن الأعراض النفسية لا يمكن فهمها إلا داخل شبكة العلاقات التي ينتمي إليها الفرد، وعلى رأسها الأسرة بوصفها نسقاً دينامياً متفاعلاً. يهدف هذا المحاضرة إلى تتبع الجذور التاريخية والفكرية للعلاج الأسري النسقي، وبيان الأسس النظرية التي انبنى عليها، مع إبراز أهم المساهمات العلمية التي شكلت معالمه.

أولاً: السياق التاريخي لنشأة العلاج الأسري النسقي

ظهر العلاج الأسري النسقي في منتصف القرن العشرين، تحديداً في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، في سياق علمي واجتماعي تميّز بتنامي الانتقادات الموجهة للتحليل النفسي الكلاسيكي، الذي ركّز على الصراعات اللاشعورية الفردية وأغفل السياق العائلي والاجتماعي. وقد تزامن ذلك مع ملاحظة عدد من الباحثين أن علاج فرد واحد داخل الأسرة لا يؤدي دائماً إلى تحسن مستدام، بل إن الأعراض قد تعود أو تنتقل إلى فرد آخر من نفس الأسرة.

في هذا الإطار، بدأ الاهتمام يتجه نحو دراسة التفاعلات الأسرية وأنماط التواصل داخل العائلة، خاصة في حالات الفصام والاضطرابات الشديدة. وقد أسهمت هذه الملاحظات في بلورة فكرة مركزية مفادها أن “المشكلة ليست في الفرد، بل في النسق الذي ينتمي إليه.”

ثانياً: الجذور النظرية للعلاج الأسري النسقي

1. نظرية الأنساق العامة (General Systems Theory)

يُعتبر عالم البيولوجيا لودفيغ فون برتالانفي (Ludwig von Bertalanffy) المؤسس الرئيسي لنظرية الأنساق العامة، والتي كان لها تأثير بالغ في تطور العلاج الأسري النسقي. تنطلق هذه النظرية من اعتبار أي كيان (بيولوجي، اجتماعي، نفسي) نسقاً يتكون من عناصر مترابطة، لا يمكن فهم كل عنصر بمعزل عن الكل. في ضوء هذه النظرية، تُفهم الأسرة كنسق مفتوح يتميز بما يلي:

- الترابط والتبادلية بين أعضائه
- الكل أكبر من مجموع أجزائه
- وجود قواعد تنظّم التفاعل والتوازن

• السعي الدائم نحو الاتزان (Homeostasis)

وقد انتقلت هذه المفاهيم مباشرة إلى الممارسة العلاجية الأسرية، حيث لم يعد الهدف هو “إصلاح الفرد”، بل تعديل أنماط التفاعل داخل النسق الأسري.

2 نظرية التواصل (Communication Theory)

شكّلت أبحاث **غريغوري باتيسون (Gregory Bateson)** وزملائه في مدرسة بالو ألتو (Palo Alto) ركيزة أساسية في نشأة العلاج الأسري النسقي. فقد ركّزت هذه المدرسة على دراسة التواصل الإنساني، واعتبرت أن الاضطرابات النفسية، خاصة الفصام، يمكن فهمها كنتائج لأنماط تواصل مرضية داخل الأسرة. ومن أبرز المفاهيم التي قدّمها هذا الاتجاه:

• الرسائل المزدوجة (Double Bind)

- استحالة عدم التواصل
- التمييز بين المحتوى والعلاقة في الرسائل
- التواصل اللفظي وغير اللفظي

ساهمت هذه الأفكار في تحويل اهتمام المعالج من “ماذا يقول الفرد؟” إلى “كيف يتواصل أفراد الأسرة مع بعضهم؟”.

ثالثاً: المراحل التاريخية لتطور العلاج الأسري النسقي

1. المرحلة الأولى: التركيز على السببية الدائرية

في بداياته، ركّز العلاج الأسري النسقي على مفهوم **السببية الدائرية (Circular Causality)** بدل السببية الخطية. فالسلوك المرضي لم يعد يُنظر إليه كنتيجة لسبب واحد، بل كحلقة ضمن سلسلة تفاعلات متبادلة. وقد مثّل هذا التحول قطيعة معرفية مع النموذج الطبي التقليدي.

2. المرحلة الثانية: تشكّل المدارس النسقية الكبرى

ابتداءً من الستينيات والسبعينيات، بدأت تظهر مدارس علاجية أسرية متميزة، من بينها:

- المدرسة البنيوية (مينوشين)
- المدرسة الاستراتيجية (هيللي، مادانيس)
- مدرسة ميلانو النسقية
- المدرسة التواصلية (بالو ألتو)

ورغم اختلاف تقنياتها، إلا أنها اشتركت جميعاً في الرؤية النسقية التي ترى أن المشكلة تعبير عن خلل في تنظيم النسق الأسري.

3. المرحلة الثالثة: الانفتاح والتكامل

منذ الثمانينيات إلى اليوم، عرف العلاج الأسري النسقي انفتاحًا على مقاربات أخرى (المعرفية، السردية، البنائية)، وبدأ يدمج البعد الثقافي والاجتماعي، مع التركيز على موارد الأسرة وقواها بدل الاقتصار على الاضطراب.

رابعًا: المبادئ الأساسية للعلاج الأسري النسقي

يقوم العلاج الأسري النسقي على مجموعة من المبادئ الجوهرية، من أهمها:

- النظر إلى الأسرة كوحدة علاجية
- التركيز على التفاعل لا على التشخيص الفردي
- اعتبار الأعراض وسيلة تواصل داخل النسق
- الحياد العلاجي وعدم التمرکز حول اللوم
- التغيير يتم عبر تعديل القواعد والعلاقات

تُترجم هذه المبادئ إلى تدخلات علاجية تهدف إلى إحداث تغيير في البنية أو في أنماط التواصل داخل الأسرة.

خاتمة

يمثل العلاج الأسري النسقي نقلة نوعية في فهم الاضطرابات النفسية والتعامل معها، إذ تجاوز الرؤية الفردية الضيقة نحو منظور علائقي شامل. وقد مكّن هذا التوجه من فهم أعمق لديناميات الأسرة، وفتح آفاقًا جديدة للتدخل العلاجي الفعّال. ولا يزال هذا النموذج إلى اليوم يشكل إطارًا نظريًا وعمليًا أساسيًا في العلاج النفسي، خاصة في التعامل مع الاضطرابات المعقّدة والمزمنة.

المراجع :

Goldenberg, I., & Goldenberg, H. (2013). *Family therapy: An overview* (8th ed.). Cengage Learning.

Nichols, M. P., & Davis, S. D. (2020). *Family therapy: Concepts and methods* (12th ed.). Pearson.